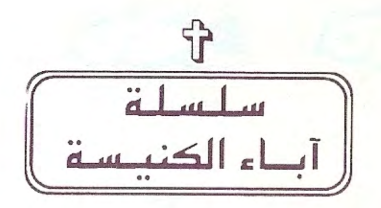
اليوبيل الماسي
للكلية الإكليريكية



القديس يوحنا كاسيان



مؤسس رهبنة الغرب

✝

علم الباترولوچى
سلسلة آباء الكنيسة

القديس يوحنا كاسيان

JOHN CASSIAN

ترجمة وإعداد

أنطون فهمى جورج



قداسة البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية



الكتـــــــاب : القديس يوحنا كاسيان ـ مؤسس رهبنة الغرب .

ترجمة وإعداد : أنطون فهمى چورج .

النـــاشـــر : كنيسة مارمرقس والبابا بطرس ـ الاسكندرية .

المطـبـعـــة : الأنبا رويس (الاوفست) ـ العباسية ـ القاهرة .



مقدمة

ارتبط علم الباترولوچى بحياة الكنيسة وتاريخها الحى ، وهناك الكثير من الآباء النساك الأقباط عُرفوا بالتقوى والاتضاع فمالوا إلى الحياة أكثر من تدوينها ، وجاء الكثير من أقوالهم الرهبانية عن طريق الزائرين من الشرق والغرب .

وصارت كتابات الآباء النساك غنية بالحياة والخبرة الروحية ، فالكثير من أقوال آباء البرية لم يتحقق تسجيله بمداد وقلم ، إنما بروح تسليمية للكنيسة خلال روح التلمذة العملية ، فغالباً ما يقوم التلميذ بتسجيل ما يراه أو يسمعه من أبيه الروحى ، وكثير من التلاميذ عند نياحة آبائهم يقومون بنسخ سيرهم وأقوالهم .

وامتدت التلمذة فى مصر ، فاحتضنت الكثير من محبى الحكمة فى الشرق والغرب ، فوفد إلى مصر كثير من القادة لأجل التلمذة .

ومن بين هؤلاء الآباء ، جاء القديس يوحنا كاسيان الذى

تتلمذ على آباء مصر وسجل خبراتهم فى كتابيه المشهورين: المناظرات مع آباء البرية ، والمؤسسات أو الدساتير والذى عالج فيه قوانين الرهبنة .

لقد شهد القديس يوحنا كاسيان فى زيارته لمصر أن الرهبان المصريين كبشر سمائيين أو ملائكة أرضيين ، وتُعتبر كتاباته عبارة عن دراسة عن الرهبان المصريين الأوائل وسلوكياتهم النسكية اللاهوتية الفاضلة والتأملية .

وصاحب هذه السيرة جال العالم يطلب الكمال فوجده فى الآباء المصريين البسطاء ، مقتنعاً بانه لم يعرف شيئاً عن الكمال قبل وصوله إلى مصر ، عندما رأى آباء الرهبنة المصرية وعاداتهم وحكمتهم وقوانينهم .

ويُعتبر كاسيان من بين الآباء الذين كانوا بمثابة المستشرقين ، أى وسطاء بين علوم اللاهوت الشرقية المكتوبة باليونانية وبين علوم اللاهوت الغربية المكتوبة باللاتينية .

أتى كاسيان إلى مصر ليغتذى بالمعرفة الروحية والمواهب

الإلهية ولينتفع بالتعاليم الرهبانية خلال مقابلات حية مع الآباء قديسى الرهبنة القبطية .

وفى رحلة مملؤة بالشغف إلى زيارة المواضع التى يقطنها صحبة من القديسين ، كان فى غاية الاشتياق إلى رؤية النظم الديرية والممارسات النسكية ، التى عاينها متجولاً فى جبال مصر مدفوعاً بالاشتياق إلى حياة الكمال .

لقد اجتذبت رائحة المسيح الذكية التى فاحت من روحانية وقداسة وحكمة ابائنا الرهبان الأوائل ، الكثير من الأتقياء من دول العالم ، فانطلقوا إلى مصر يدفعهم تطلعهم إلى نمو أكثر فى النعمة على أيدى قديسيها ، فاشتموا بخور براري شيهيت العطرة كزنابق الحقل ، وشاهدوا البرارى كالمدن والمواضع القفرة التى بلا إنسان ممتلئة بقديسى الله .

لهذا اقام كاسيان فى الشرق متتلمذاً فى الاسقيط متطلعاً إلى كمال أكثر فى النعمة ، مملوء بالرغبة فى التشبه بالآباء المصريين أو على الأقل فى التعرف عليهم .

حتى انه سجل حواراته وكل ما رآه من خبرات نسكية ومعجزات وما سمعه من كلمات منفعة وتعليم ، ووهب للأديرة الفرنسية الدروس التى تعلمها فى الشرق ، والاساس الروحى للجماعات الرهبانية فى فرنسا ، ناقلاً التراث القبطى من تعليم وصلوات وتسابيح وأنظمة ومحادثات وسير الآباء ، واصفاً الحياة النسكية القبطية كحياة ملائكية مفرحة ، عندما روى كيف كان يسمع التسابيح نهاراً وليلاً طوال سفره ، مدوية من القلالى والمغائر .

حتى تعجب هل تحولت الأرض إلى سماء أم نزلت السماء إلى الأرض ، لقد أتى القديس يوحنا كاسيان بصحبته چرمانوس إلى مصر ، فنظر الأجساد المنحنية الناسكة والقداسة التى تشع من الوجوه ، لدرجة أن منْ رأهم فقط اعطوه درساً عمليا فتعلم منهم ومن قدوتهم العملية .

لقد كشف علم الباترولوچى عن عظمة الكنيسة القبطية التى اطلقت الشرارة الأولى للحياة الرهبانية التى عاشها القديس العظيم الأنبا انطونيوس أبو الرهبان وكوكب البرية ، وكشف لنا

عن دورها الريادى فى الكرازة ، والدفاع عن الإيمان ، وايضاً فى التسليم النسكى لكنائس العالم ، عندما صارت البرية شبكة روحانية جمعت من كل الجنوس .

وتعتبر مناظرات القديس يوحنا كاسيان من أهم الكتابات الباترولوچية النسكية التى تتضمن منطوقات وكلمات وأعمال وسير ونظم رهبانية فى تجميع واقعى وحقيقى .

فلنأت مع هؤلاء الرحالة الأجانب وننظر إلى أنفسنا ونهتم بكرمنا حتى لا يتلف ، ونلتفت إلى شجرة حياتنا حتى لا يبدد طرحها طير السماء ، وإلى كنزنا حتى لا ينقبه سارق ، وإلى مركبنا لئلا يفسد العدو خطتنا ، ولنذهب إلى تلك المواضع المقدسة التى لن تكف عن أن تعطى أثمارها حتى نهاية الدهور

فى مئوية الكلية الإكليريكية نتطلع إلى تشجيع حركة الترجمة لأقوال الآباء القديسين ، وإلى الاهتمام بالدراسات الآبائية ، فى عهد البابا المعظم **الانبا شنودة الثالث** ـ أطال الله حياته ـ الذى بدأ عصراً جديداً وعهداً جديداً للخدمة والرعاية

والعمل المسكونى ، عهداً جديداً للإكليريكية والتربية الكنسية ، فدبت فى الكنيسة نهضة فى كل المستويات الروحية والتعليمية.

إننى لمدين لصاحب النيافة الحبر الجليل **الأنبا بنيامين** النائب البابوى ، من أجل محبته وأتعابه واشرافه على هذه الموسوعة الآبائية ، وايضاً لأخوتى الخدام الذين يعاونوننى فى إصدارها ، راجياً لهم ولضعفى المعونة والبركة السماوية ، بصلوات أبينا البابا المعظم **الأنبا شنودة الثالث** ، وشريكه فى الخدمة الرسولية نيافة **الأنبا بنيامين** ، وربنا كل المجد والكرامة .

تذكار ظهور الصليب المقدس

٢٧ سبتمبر ١٩٩٣م

١٧ توت ١٧١٠ ش



يوحنا كاسيان

JOHN CASSIAN

يُعد يوحنا كاسيان واحداً من أشهر كُتاب فرنسا فى القرن الخامس ، وقد نال اهتماماً كبيراً من المؤرخين ، وأُثيرت عدة تساؤلات حول اسمه الحقيقى ، فجناديوس *Gennadius of Marseilles* وكاسيودورس *Cassiodorus* يذكران أن اسمه كاسيان ، ويذكر هو نفسه فى كتاباته أكثر من مرة أن رهبان مصر كانوا يلقبونه باسم يوحنا ، بينما يجمع معاصره بروسبر *Prosper of Aquitaine* بين الاسمين (يوحنا وكاسيان) ، فيذكر ان اسمه «يوحنا كاسيان» ، وفى عناوين الغالبية العظمى من المخطوطات التى تتضمن أعماله ، يُذكر ان اسمه ببساطة هو «كاسيان» ، عدا مخطوطة واحدة تذكر أن الاسمين يوحنا وكاسيان هما لشخص واحد .

وهذا الرأى الأخير هو الأكثر احتمالاً ، إذ ربما يكون قد أخذ الاسم «يوحنا» فى المعمودية أو عند قبوله الشكل الرهبانى .

ويذكر جناديوس المؤرخ أن «كاسيان مواطن أسقيطي» مشيراً بذلك فى الغالب ، ليس إلى أسقيط برية مصر ، بل إلى مقاطعة *Scythia minor (Dobruja)* ولغته وأسلوبه يدلان على أنه نال تعليماً أدبياً ، لانه فى محادثاته يندم ويحزن لان دروس معلمه واهتمامه هو الدائم بالتعلم ، أضعفاه لدرجة أن ذهنه كان مملوء بأغانى الشعراء ، وحتى فى وقت الصلاة ، كانت هذه الأفكار تقفز إلى ذهنه ، وكذلك القصص التافهة وحكايات الأبطال فى المعارك الخيالية كانت تتراءى أمام عينيه ، كما يتضح لنا تعليمه من استشهاداته فى كتابه عن التجسد ، إذ يستشهد بكُتاب وفلاسفة وليس فقط بالآباء المسيحيين الأول ، وقد اتقن كاسيان اليونانية تماماً أثناء اقامته فى الشرق .

وتشير الدلائل إلى أن يوحنا كاسيان وُلد نحو عام ٣٦٠م ، فى الغالب فى فرنسا ، ولا نعرف عن عائلته شيئاً ، إلا عندما يذكر فى إحدى صفحات كتاباته أن له أختاً ، واللغة التى يتقنها كاسيان فى حديثه عن والديه توضح أنهما كانا ثريين وتقيين .

ونحو عام ٣٨٠م خرج كاسيان مع صديقه چرمانوس

Germanus من العالم وانضما إلى دير فى بيت لحم حيث قضيا هناك عدة سنوات وتأدبا بآداب وتقاليد أديرة سوريا ، وإذ اشتاق أن يزداد تقدماً فى حياة الكمال ، اتفق كاسيان مع صديقه چرمانوس على زيارة مصر لأن فيها نشأت الرهبنة وازدهرت ، ولان فيها أشهر الأديرة وأعظم الآباء النساك والرهبان والمتوحدين .

وبالفعل سمح رئيس الدير لكاسيان وچرمانوس بهذه الزيارة شريطة أن يعودا سريعاً ، فبدأ الرفيقان أول خطواتهما نحو فردوس الكمال ، نحو برارى مصر المزهرة ، فابحرا من سوريا ونزلا فى مدينة *Thennesus* وهى مدينة قرب بحيرة المنزلة ، وهناك التقيا مع أب متوحد مشهور يُدعى أرشيبيوس *Archebius* أسقف مدينة *Panephysis* والذى كان فى مدينة *Thennesus* لاختيار اسقف لها ، وعندما علم بموضوع زيارتهما لمصر وهدفهما منه ، عرض عليهما فى الحال أن يعرفهما ببعض الآباء المتوحدين المشهورين فى إيبارشيته ، فقبلا عرضه هذا بفرح وسرور ، وقادهم أرشيبيوس أولاً إلى ثلاثة من أشهر الآباء

المتوحدين وهم :

شيريمون Chæremon

ونسطور Nestor

ويوسف Joseph

وفى البداية ذهبا إلى الأب شيريمون الذى كان قد تخطى عامه المئة ، وكان منحنياً من الشيخوخة ومن جهاده فى الصلاة الدائمة ، لدرجة أنه لم يكن يستطيع أن يسير منتصب القامة ، وسرعان ما تغلب الأب القديس على تردده فى أن يتحدث معهما ، واشبع لهفتهما للأرتواء من ينابيع الرهبنة والروحانية القبطية بثلاثة أحاديث: ـ عن الكمال

ـ عن العفة

ـ عن عناية الله

ومن مغارة الأب شيريمون ، انتقل الزائران إلى مغارة الأب نسطور الذى كان له معهما حديثين: ـ عن المعرفة الروحية

ـ عن المواهب الإلهية .

وبعد الأب نسطور ، ذهبا إلى الأب يوسف ، والذى كان من عائلة نبيلة ، وكان على قدر كبير من التعلم فتحدث معهما باليونانية مباشرة دون الحاجة إلى مترجم كما كان الحال مع شيريمون ونسطور ، وكان سؤاله الأول لهما هل هما أخان؟ وعندما أجاباه بأنهما أخان ليس بحسب الجسد بل بحسب الروح ، قدما للأب يوسف موضوع حديثه الأول والذى كان عن الصداقة ، وفى اليوم التالى حدثهما عن الالتزام بالوعود ، وذلك اجابة منه على قلقهما وحيرتهما بسبب الوعد الذى أعطياه لرئيسهما فى بيت لحم بسرعة العودة ، فقد كانا يريدان الألتزام به ، وفى نفس الوقت لم يكن من الممكن الالتزام به دون التضحية بفرصة ثمينة للتقدم فى الحياة الروحية بتلمذتهما لآباء مصر ، وفى حيرتهما سألا الأب يوسف ، وبعد أن تشددا بنصيحته وارشاده وسلطانه قررا أن يمكثا بمصر لفترة أطول ، حيث أقاما سبع سنوات .

وبينما كان كاسيان وجرمانوس فى نواحى *Panephysis* زارا الأب بينوفيوس *Pinufius* وهو كاهن رئيس على دير كبير ،

وقد كان صديقاً قديماً لهما ، إذ كانا قد تعرفا عليه قبلاً فى بيت لحم ، حيث كان قد ذهب إلى هناك (بعد محاولة فاشلة منه أن يختفى فى دير فى جزيرة *Tabenna*) هرباً من مسئولية رتبته ، وهناك قُبل كطالب رهبنة ، واسكنه الأب الرئيس مع كاسيان فى قلايته ، حتى عرفه أحد الزائرين من مصر وارجعه إلى ديره .

أخذ كاسيان وجرمانوس طريقهما إليه ، وعند وصولهما استقبلهما استقبالاً حاراً ، واسكنهما فى قلايته ، وأثناء اقامتهما بهذا الدير ، حضرا طقس قبول طالب الرهبنة ، وسمعا الوصايا التى قالها بينوفيوس لهذا المبتدئ وبعد ذلك حدثهما رئيس الدير عن التوبة وعلامات الصفح .

وبالرغم من دعوة الأب الرئيس الملحة لهما بالبقاء معه فى الدير ، إلا أنهما اكملا رحلتهما وعبرا النهر ووصلا إلى *Diokos* وهى مدينة قريبة من النيل ، وهناك بين النيل والبحر كانت الأرض عقيمة مجدبة وغير صالحة للزراعة بسبب ملوحة التربة وجفاف الرمال ، ولذلك سكنها الرهبان بسرور ، وكانوا كثيرى

العدد رغم عدم وجود مياه ، وكان النهر الذى يحضرون منه المياه يبعد عنهم مسافة ثلاثة أميال .

وهناك التقى الزائران بالأب بيامون *Piamun* وهو متوحد مشهور للغاية وشرح لهما باهتمام عظيم سمات وخصائص كل نوع من أنواع الرهبنة الثلاثة:

١) رهبان الشركة *Coenobites*

٢) المتوحدون *Anachorites*

٣) الرهبان الذى يُسمون السرابتيون *Sarabaites*

وكان من تأثير هذا الحديث عليهما أن ألتهب شوقهما واشتياقهما إلى حياة الوحدة أكثر من حياة الشركة ، وهذا الاشتياق ازداد بعد ذلك بسبب ما رأياه وسمعاه فى الاسقيط .

الزيارة التالية كانت لدير كبير فى نفس هذه الناحية ، وكان يضم مئتى راهب يرأسهم الأب بولس ، إلا انه وقت الزيارة كان يضم عدداً أكبر من الرهبان ، إذ اجتمع فيه فى ذلك الحين رهبان من الأديرة المجاورة ليحتفلوا بذكرى نياحة رئيس الدير السابق ،

وفى هذا الدير التقيا مع الأب يوحنا ، الذى من عظم تواضعه ترك حياة الوحدة ليحيا فى حياة الشركة ، كى بهذا تُتاح له الفرصة ليتدرب على فضيلة الطاعة والخضوع ، والتى لا يجدها فى حياة الوحدة ، ولهذا حدثهما هذا الأب المبارك عن أهداف حياة الوحدة وأهداف حياة الشركة ... كما كان لهما لقاء مع الأب ثيؤناس *Theonas* وهو من مشاهير الآباء ، وهذا الأب عندما كان صغيراً زوجه والداه ، وإذ فشل فيما بعد فى اقناع زوجته بأن ينفصلا عن بعضهما البعض كى يتكرسا للحياة الرهبانية ، تركها وهرب إلى أحد الأديرة ، وبعد فترة فى هذا الدير صار مسئولاً عن توزيع الصدقات والعطايا ، ومن هذا الأب استمعا لحديث عن عدم الصوم فى أيام الخمسين المقدسة والعنصرة ، كما حدثهما فيما بعد عن «الخداعات الليلية» ، وايضاً بعد ذلك عن الكمال .

وبعد استماع الصديقين لهذه الأحاديث ، التهب شوقهما لحياة الوحدة ، وصارا أقل رغبة فى العودة إلى ديرهما فى بيت لحم ، وبدا أفضل لهما أن يعودا إلى موطنهما (فرنسا) حيث يمكنهما

أن يحيا حياة نسكية ويمارسا الجهادات النسكية بلا عائق ، وفى حيرتهما هذه سألا الأب ابراهيم ، فحدثهما عن «الإماتة» وكان لحديثه أثراً ناجحاً فى اقناعهما بترك رغبتهما المذبذبة هذه ، لذلك مكثا فى مصر عدة سنوات آخرى .

وأثناء اقامتهما فى اقليم *Dioclos* تعرفا على الأب أرشيبيوس *Archebius* الذى ـ كما يخبرنا كاسيان ـ عندما علم برغبتهما فى أن يقيما فى هذا الموضع ، عرض عليهما أن يسكنا فى قلايته ، متظاهراً بأنه سيخرج ويسافر فى رحلة ، فقبلا عرضه بسرور ، وخرج هذا الأب لعدة أيام وجمع بعض مواد البناء ، ثم عاد وبنى قلاية جديدة لنفسه ، وبعد ذلك جاءه مجموعة من الأخوة ، فترك لهما فى الحال قلايته الجديدة وذهب ليبنى لنفسه واحدة اخرى .

ومن الصعب أن نحدد هل كانت اقامة كاسيان وجرمانوس فى برية الاسقيط متضمنة فى السبع سنوات التى قضاها الصديقان فى مصر ، أم أنهما زاراها للمرة الأولى فى رحلتهما الثانية إلى مصر ، ويرجح المؤرخون أن زيارتهما الأولى لم تذهب أبعد من

الدلتا ، بينما تركا الأقاليم الأبعد لرحلة تالية .

وعندما نسير بحسب هذا الاحتمال ، نتبع الزائرين عند عودتهما إلى ديرهما فى بيت لحم بعد سبع سنوات ، حيث استطاعا أن يهدءا غضب الأخوة ، واستطاعا الحصول على تصريح بالعودة إلى مصر كرة ثانية ، وفى رحلتهما الثانية هذه ، تقدما أكثر فى مصر وزارا وادى هبيب (برية شيهيت) .

وكان لقاء كاسيان وجرمانوس الأول مع الأب موسى ، الذى كان يسكن قبلاً فى طيبة بالقرب من الأنبا أنطونيوس ، وكان فى وقت زيارتهما يقطن فى شيهيت ، ولم يكن هذا الأب مشهوراً فقط لصلاحه وفضائله وأعماله ، بل وايضاً لكماله فى الحياة التأملية ، وبعد محاولات كثيرة لاقناعه باعطائهما كلمة منفعة ، استجاب لتوسلاتهما وحدثهما عن «هدف الحياة الرهبانية» وفى اليوم التالى حدثهما عن «التمييز» .

بعد ذلك زارا الأب بفنوتيوس *Paphnutius* وكان كاهناً شيخاً متقدماً فى الأيام ، وعاش زماناً طويلاً فى حياة الوحدة ،

لا يخرج من قلايته إلا يومى السبت والأحد للذهاب إلى الكنيسة والتى كانت تبعد عن قلايته مسافة خمسة أميال ، ويعود بجرن كبير ملئ بالماء على كتفيه يكفيه طوال الاسبوع ، ومن هذا الأب الشيخ استمعا لعظة عن «النذور الثلاثة» اللازمة للراهب ، كما زارا ايضاً تلميذه دانيال والذى كان كاهناً ايضاً ، ولكنه كان متواضعاً جداً لدرجة أنه لم يكن يصلّ ابداً أى خدمات كهنوتية فى وجود معلمه ، وكان حديث الأب دانيال اجابة على سؤال الزائرين عن «شهوة الجسد وشهوة الروح» .

المقابلة التالية كانت مع الأب الناسك سيرابيون الذى حدثهما عن «الخطايا الثمانية الرئيسية» التى يُحارب بها الراهب وهي: البطنة ـ الكآبة ـ الزنا ـ اليأس ـ اشتهاء ما للغير ـ المجد الباطل ـ الغضب ـ الكبرياء .

وبعد ذلك تقدما نحو ثمانى أميال إلى القلالى وهى منطقة تقع بين برية الاسقيط ووادى النطرون ، وتقابلا مع الأب ثيودور الذى حدثهما عن «موت القديسين» .

كما زار الصديقان أثنين آخرين من مشاهير الآباء وهما:

الأب سيرينيوس *Serenus* الذى حدثهما عن «الحروب الروحية» كما شرح لهما طبيعة الأرواح الشريرة فى حديث عن «قوى روح الشر» ، والأب اسحق الذى تكلم معهما عن موضوع الصلاة فى حديثين .

هذه هى كل التفاصيل التى يمكن أن نعرفها من كتابات كاسيان عن زيارته للاسقيط ، ويبدو انه لم يتقدم أبعد من ذلك ، إذ عندما يتحدث عن طيبة وأديرتها ، يتحدث فقط نقلاً عما سمعه وليس عن معرفة أو خبرة شخصية ، أما بالنسبة لتاريخ هاتين الزيارتين ، فقد كانتا فى الغالب ـ كما نستشف من الدلائل والاشارات الواردة فى كتاباته ـ بين عامى ٣٨٠ : ٤٠٠ م

ذهب كاسيان بعد ذلك إلى القسطنطينية حيث سامه القديس يوحنا ذهبى الفم شماساً ، وهناك شهد كاسيان وصديقه جرمانوس الأحداث التاريخية التى أدت إلى نفى القديس فم الذهب .

وفى عام ٤٠٤ م ذهب إلى روما حاملاً رسالة التماس إلى

البابا انوسنت *Innocent* بابا روما من اكليروس القسطنطينية يؤيدون فيها القديس يوحنا فم الذهب ، ومكث فى روما لفترة من الوقت ، وربما كانت سيامته كاهناً بيد أنوسنت فى ذلك الوقت .

وبعد أن رحل كاسيان من روما ، ذهب إلى فرنسا ، وبينما كانت الرهبنة غير معروفة تقريباً فى فرنسا عندما رحل منها كاسيان قبلاً ، إلا أنه اثناء غيابه فى الشرق ، بُنيت بضعة أديرة فى أقليم *Loire* بيد القديس هيلارى(*) اسقف بواتييه المُلقب بأثناسيوس الغرب ، وعندما عاد كاسيان كان هناك عدة أديرة تحت الانشاء فى اقليم *Provence* .

واستقر كاسيان فى مارسيليا ، وهناك وسط الغابات الكبيرة أنشأ ديرين ، احدهما للرهبان ويُقال انه بُنى على قبر القديس بقطر وهو شهيد نال الاكليل فى اضطهاد دقلديانوس ، والآخر دير للعذارى .

(*)انظر كتابنا «القديس هيلارى اسقف بواتييه ... أثناسيوس الغرب» ضمن هذه السلسلة اخثوس IXΘYΣ .

ولما كان لكاسيان من خبرة ومعرفة بالأنظمة الرهبانية فى مصر ، كان يُرجع إليه كمرجع ومصدر ثقة وسلطان ، وصار رئيساً للحركة الرهبانية التى كانت تتأصل بسرعة فى اقليم *Provence* ويُعد المنظم والمدبر الأول للرهبنة الغربية ، إذ نقل كل التراث القبطى من تعاليم وصلوات وتسابيح إلى الغرب .

وقد ناله فى نهاية حياته متاعب جمة إذ أُعتبرت تعاليمه بخصوص مسئولية الإنسان فى جهاده انحرافاً ، وكان ذلك هو السبب فى اختلافه مع القديس أغسطينوس والذى انتهى فى مجمع أوراسو ٥٢٩م .



كتاباته

كان كاسيان متعلماً ودارساً ، تدل كلماته وأسلوبه وبلاغته على انه كان متمكناً ومتمرساً فى اللغة اليونانية ، وقد خصص القسم الأكبر من كتاباته للأعمال الرهبانية ، ولم يدخل فى غمار التساؤلات اللاهوتية إلا فى أيامه الأخيرة ذلك عن التجسد .

١) المؤسسات الرهبانية

De Institutis Coenobiorum

كان هذا العمل هو كتاب كاسيان الأول ، وكتبه إلى كاستور *Castor* اسقف *Apt* ، وقد قسمه إلى ١٢ كتاباً .

يبدأ العمل بمقدمة يخاطب فيها كاستور ، ويتبعها القسم الأول عن حياة الرهبان وهو يتضمن الكتب من ١-٤:

١) الثبات .

٢) الخدمة الليلية بحسب الطقس القبطي

٣) الخدمة اليومية بحسب الطقس الفلسطينى والميصى *Mesopotanian* (أى المتبع فى الميصا) .

٤) الحياة العاملة والفضائل اللازمة لها .

أما القسم الثانى فيبدأ باهداء جديد إلى كاستور ، ثم يعالج الخطايا التى يجب أن يجاهد الراهب ضدها كى ينال نقاوة القلب وهى تشمل الكتب من ٥-١٢ :

٥) البطنة ٦) الزنا ٧) الطمع
٨) الغضب ٩) الكآبة ١٠) الكسل والتراخى
١١) المجد الباطل ١٢) الكبرياء والعجب .

وهى نفس قائمة الخطايا التى تحدث عنها ايفاجريوس البنطى(*) المُلقب بمار أوغريس قبل ذلك بعدة سنوات .

وفى الغرب قام يوشيريوس *Eucherius* بعمل ملخص لكتاب المؤسسات وكتاب المناظرات ، إلا انه قد فُقد ، وقد تُرجمت «المؤسسات» إلى اليونانية فى القرن الخامس ، ومن هذه الترجمة

(*) انظر كتابنا «القديس إيفاجريوس البنطى ... من روائع الأدب النسكى» ضمن هذه السلسلة اخثوس ΙΧΘΥΣ حيث تجد النص الكامل لحديث إيفاجريوس عن هذه الخطايا .

صيغ ملخص لها باليونانية (غير ذلك الذى قام به يوشيريوس) فى كتابين عرفهما فوتيوس المؤرخ واستخدمهما .

وقد نشر *Montfacon* النص اليونانى من مخطوطة الكاردينال *Altemps* والتى كانت تنسبه إلى أثناسيوس وترجمها إلى اللاتينية .

٢) المناظرات *Conlationes*

تُعد «المناظرات» أو «المقابلات *Conferences*» تكملة للمؤسسات ، وهى تنقسم إلى ثلاثة أقسام مترابطة :

القسم الأول :

من المناظرة ١:١٠ وهو الذى طلبه كاستور ، ولكن إذ كان قد تنيح قبل ذلك الوقت (٤٢٥ - ٤٢٦ م) ، اهداه كاسيان إلى ليونتيوس *Leontius* أخو كاستور ، وإلى هيلاديوس *Helladius*

القسم الثانى :

من المناظرة ١١:١٧ وقد كتبه كاسيان إلى الأب يوشيريوس

Eucherius الذى كان رئيساً لدير كبير وأراد أن يهذب رهبانه ويعلمهم دروساً يومية من وصايا آباء برارى مصر .

وإلى الأب هونورتيوس *Honortius* الذى كان شغوفاً بالمجئ إلى مصر ليتهذب برؤيته للآباء الأقباط العظماء ، فاهداه كاسيان هذا العمل ليحثه على القدوم إلى مصر .

القسم الثالث :

من المناظرة ١٨ : ٢٤ وقد كتبه كاسيان إلى الآباء الأربعة :

چوڤينيان *Jovinian* ـ مينيرڤيوس *Minervius*

ليونتيوس *Leontius* ـ ثيودور *Theodore*

وأربعتهم رؤساء أديرة ، وقد أنشأ ثيودور «نظاماً ديرياً مباركاً سامياً يحيا فيه جماعة من الرهبان فى نظام الشركة ، بل وقد اشتاق البعض منهم إلى حياة التوحد العالية» .

القسم الأول (من ١ : ١٠)

وهى المقابلات التى كانت أثناء اقامته فى الاسقيط ، وهى عمل رائع عن الكمال .

ا) هدف الحياة الرهبانية (للأب موسى)

وفى هذا الحديث أكد الأب موسى لكاسيان وچرمانوس أن نقاوة القلب تعنى ملكية الله وحده لهذا القلب ، أى المحبة والانشغال الكامل والدائم بالله والتأمل فيه على الدوام ، والصوم والصلاة والصدقة وكل الجهادات النسكية إنما هى وسائل لنوال نقاوة القلب التى هى طريق الملكوت ، وكل الجهادات تفقد كيانها بل تضلل الإنسان وتخدعه إذا لم يكن هدفها نقاوة القلب

فى هذا الجسد البشرى الضعيف ، يطلب الإنسان كمال النقاوة ، ويفرح روحياً قدر ما يقترب منها ، لكن يلزمه روح التمييز لئلا ينحرف عنها ، وذلك بفضل عمل الروح القدس الساكن فيه والذى يهب الحكمة أو الافراز مع الجهاد الروحى .

ولابد للمجاهد من التمييز بين مصادر الأفكار ، لأن كثير من الأفكار تبدو مقدسة بينما هى فى حقيقتها مضللة مثل الأفكار التى تحث الراهب على الخدمة فى العالم ، والأفكار التى تحث الكاهن المتزوج على الرهبنة ، والأفكار التى تراود الخاطئ والمستهتر عن مراحم الله فتكون ستاراً لعدم توبته .

٢) التمييز (للأب موسى)

وفى هذا الحديث شرح الأب موسى أن التمييز هو عين العقل التى تفرز الأفكار والأعمال وتميز بينها ، ولكنه عطية إلهية يلزمنا أن نثابر فى طلبها بلجاجة من الله .

وأهمية وعظمة فضيلة التمييز تتمثل فى أنها تحفظ الإنسان من الضربات اليمينية ومن الضربات اليسارية ، فيحيا فى اعتدال بحسب قامته ، والإنسان الذى أُعطى روح التمييز وروح الاتضاع لا يعتمد على فكره الذاتى الخاص ، بل يتمسك بفكر الآباء الأولين وبروحهم ، ولا يُخفى أى شئ من أفكاره وأعماله عن أب اعترافه لأن سلطان الفكر الشرير ينكسر متى خرج إلى النور .

٣) النذور الثلاثة (للأب بفنوتيوس)

وشرح فيها أن الدعوة للتكريس لله تأتى :

١] من الله مباشرة .

٢] عن طريق الاقتداء بالغير .

٣] عن طريق الأحزان والتجارب .

ورغم أن الدعوة الثالثة تبدو كأنها أقل من الأولى والثانية ، لكن كثيرين بدأوا بها وارتفعوا إلى قمم كمال الحب والعشق الإلهى خلال الجهاد والمثابرة بفضل النعمة الإلهية .

والزهد والترك يأخذ مراحل ثلاث :

١ - الترك المادى مثل ترك المقتنيات .

٢ - ترك السلوك القديم أى خلع الإنسان العتيق .

٣ - ترك الأرضيات وارتفاع القلب فى السماويات .

٤) شهوة الجسد وشهوة الروح (للأب دانيال)

وفى هذا الحديث عالج الأب دانيال موضوع الفتور الروحى ، وأكد أن علاج الفتور يستلزم التعرف على نوعه :

١] نوع سببه الاهمال والتراخى من جانبنا .

٢] نوع سببه حرب الشيطان .

٣] فتور بسماح من الله وذلك لاحد أمرين :

أ} إما للمتكلين على برهم الذاتى كى يدركوا أن فضل القوة من الله لا منهم .

ب} أو للمتراخيين والمستهترين تحت ستار محبة الله

ونعمته ، كى يتعلموا حياة الجهاد والمثابرة فى فترات الفتور حتى ولو لم يشعروا بتعزية ، لانه يلزم أن نجاهد من أجل الله ذاته .

وقد سمح الله بوجود شهوة الجسد التى هى ضد الروح للأسباب التالية :

١] لكى عندما نضعف روحياً تثور فينا شهوة الجسد ، وعندئذ نشعر بالضعف فيكون باعثاً على التوبة .

٢] لكى فى لحظات النمو الروحى تحاربنا شهوات الجسد لكن بغير سلطان علينا كى نتضع أمام الله .

٣] كى تحفظنا احتياجات الجسد من المغالاة وعدم الاعتدال .

٥) الخطايا الثمانية الرئيسية (للأب سيرابيون)

وفى هذه العظة يشرح الأب سيرابيون أن الخطايا الجسدية تحتاج إلى تضافر جهادات الجسد (الصوم والزهد والسهر) مع جهادات العقل (الصلاة والتنهدات والتأمل) فى يدى النعمة الإلهية للنصرة عليها ، ولكل إنسان خطية معينة تتعبه ، لذا يلزم أن يركز عليها جهاده من صوم وصلاة وسهر وتنهدات

ودموع ، لكن النصرة عليها تتطلب الجهاد ايضاً ضد الخطايا الاخرى ، ويجب أن نعلم أنه لا نصرة بجهادنا البشرى ، بل بالسيد المسيح الذى جُرب وانتصر .

٦) موت القديسين (للأب ثيودور)

إذ سأل كاسيان وجرمانوس الأب ثيودور عن لماذا يسمح الله بموت قديسيه ، اجابهما ان الله لا يجازى الأبرار بالبركات الزمنية ولا يعاقب الأشرار هنا ، بل جعالة الأبرار هى الحياة الأبدية ، وما يصيب الأبرار هنا من شر ليس شراً فى الحقيقة ، لأن الشر هو الخطية التى تفصلنا عن الله ، والخير هو الفضيلة التى تقربنا لله ، وبالنسبة للإنسان المؤمن ، كل الأشياء تعمل معاً للخير .

والله يسمح بالتجارب إما لتزكية المؤمن أو لأجل تمجيد الله واحياناً يسمح بها نتيجة تخليه عن الإنسان الشرير بسبب اصراره على الشر .



٨،٧) الحروب الروحية وقوى روح الشر
(للأب سيرينيوس)

وكما يتضح من عنوان هذه المناظرة ، عالج الأب سيرينيوس موضوع الحروب الروحية وجهاد الإنسان فيها ، فالله وهب للإنسان سلطاناً على الفكر ، له أن يقبل الصلاح ويتجاوب معه، وله ايضاً أن يقبل الشر وعندئذ يخضع له وينحنى تحت سلطانه بغير ارادته ، وبالتالى يحتاج إلى نعمة الله فى انسحاق قلب وتوبة مجاهداً حتى يتحرر من السلطان الذى خضع له بارادته ، لكن يجب ألا ييأس الإنسان مهما بلغت خطاياه ، بل فليجاهد فى رجاء لأن ملكوت الله يُغصب ، وإن كان الشيطان عنيفاً فى حربه ، فنحن ايضاً فينا الروح القدس القدير .

كما تحدث الأب سيرينيوس عن أصل الشياطين وأنواعها وحروبها ضد الإنسان .

٩،١٠) طرق الصلاة (للأب اسحق)

وتعتبر هاتان المناظرتان قلب ومحور روحانية كاسيان ، ففيهما أكد الأب اسحق أن الصلاة هى تاج الفضائل وغايتها ،

والفضائل هى سند الصلاة الهادئة .

والصلاة الربانية هى نموذج للحديث والمناجاة السرية بين النفس البشرية والآب السماوى ، وهى تحوى كل ما يلزم أن تكون عليه أفكارنا أثناء الصلاة ، وبها ينتقل المصلى الواعى إلى صلاة سرية صامتة عميقة يبتهج فيها القلب بالسيد المسيح له المجد .

وترديد صلاة «اللهم التفت إلى معونتى يا رب اسرع واعني» والهذيذ بها هو خير معين للإنسان فى جهاده .

القسم الثانى (١١-١٧)

وهى المقابلات التى تمت فى *Panephysis* فى بداية الرحلة إلى مصر ، وكُتبت سنة ٤٢٧ م .

١١) الكمال (للأب شيريمون)

من خبرته العميقة ومن ثمار جهاده ، حدث شيريمون الزائرين عن الكمال ، وبفكر إنجيلى علمهم أن هناك ثلاث أمور تساعد الإنسان للسلوك فى طريق الرب :

أ] الخوف من العقاب الأبدى .

ب] الرجاء فى ملكوت السموات .

جـ] محبة الصلاح نفسه أو حب الفضيلة من أجل الله .

والإنسان يصعد مبتدئاً بالخوف ، خوف العبد الذى يخشى سيده ، ثم ينطلق إلى الرجاء ، رجاء الأجير الذى ينتظر مكافأة صاحب الحقل فى أخر يومه ، ليبلغ إلى قمم الحب كابن لا يطلب من أبيه شيئاً سوى أن يكون فى أحضانه .

١٢) العفة (للأب شيريمون)

وفيها أوضح أن الإنسان ينمو فى الطهارة والعفة بالتدريج ، وحدد ست درجات للعفة :

١] الأولى ألا يسقط الإنسان تحت ثقل هجمات الجسد .

٢] الثانية أن يوقف فكره عن الأفكار الدنسة .

٣] الثالثة ألا تؤثر فيه رؤيته للمرأة .

٤] الرابعة ألا يشعر خلال يومه بأى حركة من حركات الجسد

٥] الخامسة ألا يتأثر فكره متى ألزمته الضرورة الحديث عن أمور الزواج .

٦] السادسة ألا ينزعج أثناء نومه بالأحلام التى لا تليق .

ويلزم على الإنسان أن يجاهد بلا كلل من أجل الطهارة والعفة ، لكن لابد أن يعلم ويتيقن أنها نعمة تُعطى من الله وحده .

١٣) عناية الله (للأب شيريمون)

فى حديثه الثالث هذا ، تكلم شيريمون عن أن الطهارة والعفة عطية مجانية من النعمة الإلهية ، ولكنها لا تُعطى إلا للمجاهدين بقلب منسحق ، والجهاد والنعمة طريق واحد ، فهما متلازمان لا يمكن فصلهما ، لأن الجهاد الحقيقى لا يمكن القيام به بغير النعمة ، ولا النعمة تعمل فى المتراخيين ، والنعمة تعمل فى المجاهدين وتعينهم فى التجارب دون أن تفقدهم حرية ارادتهم حتى يُكللوا ، وهذا الجهاد مهما بلغ قدره لا ينفى عن النعمة مجانيتها .

١٤) المعرفة الروحية (للأب نسطور)

شرح الأب نسطور أن المعرفة لها جانبان :

الجانب الأول: المعرفة التى ننالها بتقدمنا فى الفضيلة والتطهر من الخطايا .

الجانب الثاني: المعرفة التى تتضمن التأمل فى الإلهيات .

ولابد لمن يريد بلوغ المعرفة التأملية أن ينال أولاً المعرفة العملية الاختبارية .

والكمال العملى يعتمد على وسيلتين :

١] التعرف على طبيعة الخطايا وطرق علاجها .

٢] اكتشاف تدبير الفضائل وتشكيل الذهن بحسب هذه الفضائل

وكل إنسان يسعى فى المعرفة العملية والأعمال التى يختارها بحسب النعمة ، فهناك منْ يحيا فى نسك خفى ونقاوة قلب ، وهناك منْ يحيا فى شركة ، والبعض يخدمون الغرباء ، وآخرون يهتمون بالمرضى ، وكذلك منْ يصلون عن الآخرين .

والمعرفة والتفسير الروحى أربعة أنواع :

١] التفسير المجازى .

٢] التفسير الرمزى .

٣] التفسير التشبيهى .

٤] التفسير التاريخى .

واقتناء المعرفة الروحية يكون بالتخلص من اهتمامات هذا العالم ، وبالسلوك بلا عيب فى وصايا الرب .

أما عن أسباب عقم التعليم الروحى ، فيلخصها الأب نسطور:

١] أن المعلم يمدح أموراً ليس له خبرة بها ، فيعلم سامعيه كلمات جوفاء فارغة .

٢] أن السامع إنسان شرير مملوء بالخطايا ولا يريد أن يتقبل فى قلبه القاسى التعاليم الروحية .

١٥) المواهب الإلهية (للأب نسطور)

المواهب قد تكون من أجل الشفاء حيث تلازم الآيات أناس مختارين وأبرار وذلك من أجل استحقاقات قداستهم مثل الرسل والتلاميذ .

وقد تكون المواهب من أجل تعليم الكنيسة أو من أجل إيمان الذين أحضروا مرضاهم .

لكن قد يعوق عدم إيمان المرضى أو الذين احضروهم اتمام

الشفاء لهم ، واحياناً يتم الشفاء بخداع الشياطين ، وذلك عندما يستعبد الإنسان لخطايا واضحة ، لكى عندما يندهش الناس من أعماله ، يقتفون اثاره ويتمثلون به وبفكره .

لذلك يجب ألا تكرم إنساناً من أجل أعماله بل من أجل محبته ، لأن الرسول بولس فضل المحبة على كل ما عداها .

وعظمة المواهب لا تتضح فى المعجزات بل فى اتضاع صانعها ، لان الاتضاع هو سيد المواهب جميعها .

ومقاومة الإنسان لشهواته وأفكاره الشريرة أعظم بكثير من اخراجه للشياطين أو صنع أشفية ، لأن شفاء النفس فضيلة عظيمة أكثر سمواً من شفاء جسد الغير .

١٦) الصداقة (للأب يوسف)

علم الأب يوسف الصديقين أن أنواع الصداقة المختلفة التى تقوم على أساس النفع الخاص أو الرغبات أو القرابة أو التشابه فى العمل ، لا تستمر إلى الأبد ، لكن الصداقة الوحيدة التى لا تنتهى هى التى لأجل التشابه فى الفضيلة ، فهذا هو الحب

الحقيقى الذى لا ينكسر ، ولكى يحفظ الأصدقاء أنفسهم فى الحب الذى بينهم ، عليهم أن يكونوا حريصين على التطهر من خطاياهم وإماتة شهواتهم كى يتحقق فيهم قول النبى «هوذا ما أحسن وما أحلى أن يسكن الأخوة معاً» {مز١٣٢:١} .

أما الوسائل التى تحفظ اتحاد الصداقة فيعددها الأب يوسف كما يلى :

الأساس الأول: هو الازدراء بالأمور الوقتية واحتقار كل ما نملكه .

الأساس الثانى: هو ان يقطع كل إنسان رغباته ولا يظن أنه حكيم مفضلاً آرائه عن آراء قريبه .

الأساس الثالث: أن يعرف الإنسان أن المحبة والسلام أولاً وبعد ذلك أى شئ آخر .

الأساس الرابع: أن يتحقق الإنسان من أنه لا يجوز له أن يغضب قط بسبب حسن أو ردئ .

الأساس الخامس: يجدر بالإنسان أن يحاول شفاء كل حنق عند أخيه تجاهه ، ولو كان بغير سبب ، وبنفس

الطريقة يتخلص هو من الحنق الذى عنده تجاه أخيه .

الأساس السادس: يجب أن يتحقق كل يوم أنه راحل عن العالم

وليعلم كل أحد أن منْ يعتمد على رأيه الشخصى لا يسلم من خداعات الشياطين ، فلا يجب أن يحتقر الصغار أثناء المناقشات مهما كان متعلماً .

ومن الصور المستترة للغضب وعدم محبة الغير :

١] الابتعاد عن الذين بيننا وبينهم نزاع بقصد اثارتهم ، مع أن الله ينظر إلى القلب لا إلى مجرد النزاع الخارجى .

٢] يستخدم البعض الصمت لاثارة الآخرين أكثر مما يثيرهم الكلام .

٣] الاضراب عن الطعام بغضب .

٤] البعض يقوم بتحويل الخد الآخر لاثارة الغير وليس لتلطيف غضبه .

١٧) الالتزام بالوعود (للأب يوسف)

إجابة على حيرة الصديقين عما إذا كان يجب أن يوفيا بوعدهما لآباء ديرهما فى بيت لحم ويعودا ، أم يمكثا لفترة أطول فى مصر لأجل نفعهم الروحى ، كان حديث الأب يوسف هذا .

فعلمهم انه حسن بالراهب أن لا يسرع فى اعطاء أى وعد ، فلابد من الحذر قبل اعطاء الوعود ، وإن اعطى إنسان وعداً ورأى أنه سيصيبه ضرراً بسببه يمكن أن يعتذر عنه ، وساق أمثلة كثيرة من الكتاب المقدس

القسم الثالث:(١٨:٢٤)

وقد كُتبت المناظرات (١٨:٢٠) ما بين عامى ٤٢٨م و٤٢٩م وكان كاسيان قد قابل هؤلاء الآباء فى *Diolcos* ، أما المناظرات (٢١:٢٤) فقد كانت فى *Panephysis* .

١٨) أنواع الرهبان الثلاثة (للأب بيامون)

وفيها يعلمنا القديس بيامون أن رهبنة الشركة هى المسيحية كما ينبغى أن تكون ، والدافع إليها هو الحياة مع الرب يسوع

فى شركة وحب مع الأخوة ، مع موت عن أمور هذا العالم ومحبة القنية .

أما رهبنة التوحد فهى زهور تينع فى شجرة القديسين الحية يبغى فيها النساك حياة التأمل الدائم والانطلاق بالنفس نحو الله بلا عوائق .

رهبنة السرابتيين *Sarabaites* هى انحراف عن الرهبنة السليمة ، إذ فيها يحيا كل راهب حسب هواه وارادته بغير خضوع لأبيه الروحى ، فلا يُعد الدير شركة بل يصير مجرد مجموعة من الرهبان المتباينين فى فكرهم وهدفهم وطريقة حياتهم

والمتوحدون الذين هربوا إلى العزلة لا لعشقهم فى البر بعد نجاحهم فى الطاعة والخضوع فى نظام الشركة ، بل هرباً من حمل نير الأخوة وطاعة القوانين وأب الاعتراف ، هؤلاء ليسوا متوحدين حقيقيين بل مهملين يحملون سم خطاياهم فى داخلهم فيخدعون أنفسهم والآخرين .

والاتضاع الحقيقى للراهب هو الذى ينبع عن مسكنة الروح

الداخلية ولا يتوقف على مجرد مسكنة المظهر والكلام الزائف .

١٩) هدف حياة الشركة وهدف حياة الوحدة (للأب يوحنا)

من هذا الأب القديس تعلم كاسيان وجرمانوس أن هدف المتوحد هو التأمل الدائم فى الله ، لكن متى كثر عدد زائريه ، يهتم المتوحد بالأمور المادية الضرورية الخاصة بالزائرين ما يفسد عليه حياة التأمل .

وهدف حياة الشركة هو محبة رب المجد المترجمة فى محبة الأخوة والطاعة الكاملة والخضوع .

ولكن التوحد ليس مجالاً لاخفاء الخطايا ، لذلك التوحد الصحيح هو أن ينجح الراهب أولاً فى حياة الشركة ويتعلم محبة الأخوة والطاعة والبذل ، وبعد ذلك يستطيع بنعمة الله أن يحيا فى التأمل الإلهى .

٢٠) التوبة وعلامات الصفح (للأب بينوفيوس)

وهنا شرح الأب بينوفيوس أن علامة التوبة الصحيحة أن

تحمل وسط الحزن والندامة على الخطية ، سلاماً داخلياً فى النفس ، أما التوبة التى بلا سلامة فتبعث فى النفس يأساً .

والإنسان التائب لا يعود يذكر خطاياه التى تاب عنها ، وخاصة تفاصيلها حتى لا تدفعه للسقوط مرة آخرى ، وإن كان تذكر الخطايا السابقة هام للإنسان المتهاون الكسلان ، إلا أنه يجب أن يكون بحذر ، فيجب ألا يذكر الإنسان تفاصيل خطاياه السابقة ، بل يتذكر ضعفه فقط .

ويجب ألا ينسى الإنسان الجانب الإيجابى ، أى بجانب خطيته يتذكر محبة الله وحنانه ، ولا يجعل كل فكره فى الخطية التى سقط فيها .

كذلك للشكر فى حياة التائب أهمية خاصة ، إذ لابد أن يشكر الله على رحمته التى بها غفر خطيته .

والتوبة العملية تظهر أثارها الحية فى :

أ] تنفيذ وصايا الرب من صدقات وعطايا .

ب] محبتنا لأخوتنا وعطفنا تجاه الخطاة الساقطين .

جـ] التطهر من الاحاسيس الخاطئة والابتعاد عن مكان الشر .

ولابد أن يدرك الإنسان فى جهاده أنه مهما بلغ جهادنا من ارتفاع ، إلا أنه لا يثمر بغير نعمة الله المترفقة بنا ، وأنه مهما وُهبنا من نعمة وجاهدنا ، لكننا نبقى فى حالة توبة دائمة مادمنا بعد فى هذا الجسد ، ونظل كل حياتنا مجاهدين بفرح ورجاء ، لكن فى انسحاق وانكسار قلب على الدوام .

٢١) عدم الصوم أثناء الخماسين (للأب ثيوناس)

فى هذه العظة شرح ثيوناس أن من يعيش تحت النعمة يلزمه أن يتجاوز مطالب الناموس ، ولكن من يتهاون فى وصايا كمال الإنجيل ، يخضع لسلطان الخطية ويُعد متهاوناً بنعمة الله .

الصوم وسيلة لنقاوة القلب وليس غاية فى ذاته ، ولذا لابد أن يكون لنا ميزان عادل لأن التهاون فى الصوم والمغالاة فيه كلاهما مضران لحياة الإنسان الروحية ، ولكن يجب ألا تُفهم فترة الخماسين المقدسة على أنها مجال لاشباع رغبات الجسد ، ولا لكى يأكل الإنسان فيها كما يشاء ويسلك بلا دقيق .

ويجب أن نحترس بيقظة تامة حتى لا تخور نفوسنا بسبب الغوايات ، فنفقد طهارتنا التى نلناها ، وذلك بالراحة والاهمال فى وقت عيد القيامة بعد جهاد مستمر طوال الصوم الكبير .

٢٢-٢٣) الخداعات الليلية ـ الكمال الذى نبغيه (للأب ثيوناس)

التأمل فى الله هو الشئ الوحيد الذى بجواره تفتقر جميع استحقاقات أعمالنا الصالحة ، فجميع الفضائل متى قُورنت بفضيلة التأمل تبدو ضئيلة ، ولكن لا يستطيع أحد أن يتمتع بهذا الصلاح العظيم الذى للتأمل ، لأنه مهما كان جهاد الإنسان لابد له من لحظات ينشغل فيها بتدبير أمور أرضية وينشغل عن التأمل ، فمثلا منْ ذا الذى يسهر دوماً ويتيقظ ولا يسمح لعقله أبداً أن يتحول عن معنى الكتاب المقدس .

والإنسان الروحى المجاهد يشتاق دوماً إلى التأمل فى الإلهيات ، فيحتقر أمور هذا العالم ويذكر الله على الدوام ، ولأنه يشعر بأن ثقل الأرضيات يضايقه ، لذلك يشعر دوماً بحاجته إلى مراحم الله بانسحاق قلب .

٢٤) الإماتة (للأب ابراهيم)

الإماتة كما شرحها الأب ابراهيم هى أن يموت الراهب عن العلاقات مع أقاربه بالجسد ليحب البشرية كلها فى الرب يسوع المسيح .

ويجب ألا ينشغل الراهب بالأعمال الكثيرة ، وفى نفس الوقت لا يعتمد على أقاربه أو غيرهم فى سد احتياجاته الضرورية ، لأن منْ لا يعمل لا يأكل .

كما لا يجوز علاج القلق وغيره من الحروب الروحية بطرق خارجية كالهروب خارج القلاية والانشغال بالعمل المادى .

وحمل المسيح خفيف ونيره هين لمن تأسس على حياة الاتضاع الحقيقى ، مثبتاً انظاره على الرب على الدوام ، لكن خطايانا هى التى تجعل حمل المسيح ثقيلاً علينا .

✝ ✝ ✝

وقد عرف المؤرخ جناديوس هذا العمل كما هو الآن ، وكانت هذه الأقسام الثلاثة معروفة لكن كل منها على حدة ، ووُجدت مُجمعة معاً لأول مرة فى مخطوطة فى باريس من القرن الثامن .

وقد كُتبت «المناظرات» فى شكل حوارات يقدم فيها جرمانوس واحياناً كاسيان أسئلة ويجيب عليها الأب الذى يحدثانه ، والمقصود بالعدد ٢٤ هو أن يذكرنا بالـ ٢٤ كاهناً السمائيين المذكورين فى سفر الرؤيا ، ولم يُقصد بالمناظرات أن تكون أبحاثاً دراسية بل هى مقابلات ومحادثات مع معلمى الحياة الروحية ، ولم تُرتب أى ترتيب منطقى ، لكنها أعظم أعمال كاسيان ، وكان لها تأثير عظيم على الحياة الرهبانية فى الشرق والغرب خاصة على بندكت مؤسس الرهبنة البندكتية الذى جعله كتاب القراءة اليومية لرهبانه ، وعلى كاسيودورس(*) الذى جعل كتب كاسيان منهجاً لرهبان ديره .

(*) انظر الفصل الخاص بكاسيودورس فى كتابنا «الآباء المؤرخون... مصادر التاريخ الكنسي» ضمن هذه السلسلة اختوس ΙΧΘΥΣ .

٣) عن التجسد ضد نسطور

De Incarnatione Domini Contra Nestorium Libri VII

كتب كاسيان هذا العمل عام ٤٣٠م بناء على طلب لاون رئيس شمامسة روما واهدى هذا العمل إليه ، وهو أخر أعمال كاسيان ، ويختلف عنوانه فى المخطوطات المختلفة ... وقد قدم لاون العديد من النصوص المأخوذة من عظات نسطور إلى يوحنا كاسيان ليستشهد بها فى رده على نسطور .

ولكى يدحض الكاتب البدعة النسطورية ، دحض أولاً البدعة البيلاچية كمصدر لكل الشرور ، ورأى أن بدعة بيلاچيوس هى سبب انحرافات نسطور التى تظهر فى عظاته ، وقد تحدث أغسطينوس ايضاً عن هذا الارتباط بين النسطورية والبيلاچية .

ويؤكد كاسيان على الاتحاد بين الطبيعتين فى وحدة واحدة ، ويؤكد على الاقنوم الواحد ، ويشرح أن لقب «والدة الإله ـ ثيؤطوكوس» له اساسه الكتابى ، ويقدم العديد من النصوص من العهدين القديم والجديد وكذلك من النصوص الآبائية ، وفى

الختام يلتمس من مسيحى القسطنطينية بالحاح أن يثبتوا فى اتباعهم لتعاليم يوحنا اسقفهم .

ولأن كاسيان لم يكن لاهوتياً ، لذلك جاء هذا العمل ضعيفاً فى تركيبه ، إلا أنه يعى أهمية الحقائق اللاهوتية للحياة الروحية ، فالارتباط بين الخريستولوچى (العقيدة الخاصة بالسيد المسيح) وبين الحياة الروحية واضح جداً فى فكر كاسيان .



ملامح من فكره

١) الكمال الرهبانى

إن «المؤسسات» و«المناظرات» هى قانون أساسى للحياة الرهبانية ، وبها أدخل كاسيان منهج وخبرة وروحانية الرهبنة الشرقية إلى الرهبنة الفرنسية .

لم يقدم كاسيان عقيدة روحية منهجية ، بل قدم فكراً روحياً مؤسساً على الكتاب المقدس ، وعلى تقاليد الآباء وعلى الخبرة الشخصية .

ويكتب «إن الأديرة لا تزال تحيا الحياة الرسولية ، أى حياة الكنيسة الأولى فى أورشليم المجتمعة حول الرسل ، فالمؤمنون الذين يحفظون أنفسهم فى غيرة الرسل يتركون مدنهم لكى يعيشوا بحسب مثال جماعة الرسل بعيداً عن أدناس العالم» .

والرهبان لم يخترعوا أمراً جديداً بسلوكهم فى هذا الجهاد الرهبانى ، لأن لهم أصولهم وجذورهم فى تقليد العصر الرسولى ، والذى كانت أهم سمة فيه هى ترك كل قنية ، وكسر

الإنسان لمشيئته بالطاعة ، وتكريس الإنسان لنفسه بالكمال لله فى عفة طاهرة ونقاوة قلب ، ورغم أن الرهبنة كانت شركة فى أصولها ، إلا أن كاسيان يميز بين نوعين منها :

رهبنة الشركة *Coenobites* ـ رهبنة والوحدة *Anachorites*.

ورهبان الشركة يعيشون الحياة المشتركة كما كانت تحياها كنيسة الرسل الأولى ، أما المتوحدون فيتبعون مثال الأنبا بولا أول السواح والأنبا أنطونيوس أبو الرهبان اللذين وجدا قدوتهما ومثالهما فى إيليا النبى وإليشع فى العهد القديم ، ويوحنا المعمدان فى العهد الجديد ، وكاسيان يفضل هذا النوع الأخير من الرهبنة كأعظم وأعلى فى القامة الروحية .

وحياة الراهب إنما هى تقابل مستمر دائم بين اللوغوس (الله الكلمة) وبين خبرة الراهب الشخصية ، وهذه الحياة الرهبانية تأخذ نقطة إنطلاقها من دعوة الله ، لكن ناموس الخروج هو دعوة لجحد العالم ودعوة لتبعية الله ، فالراهب هو ذاك الذى يحيا فوق كل شئ حياة إنكار وكفر بالذات «لكى يعلنوا رغبتهم فى السير نحو الله عليهم أن يبدأوا فى جحد العالم» .

والجحد الخارجى المادى لابد أن يرافقه ترك وهجر للعادات الرديئة ، ترك الشهوات والخطايا ، فهو جهاد روحى ضد الإنسان الجسدانى العتيق وضد فخاخ وخدع الشيطان ، يقود الإنسان إلى الكمال الإنجيلى .

والتطهر من الخطايا يسير جنباً إلى جنب مع اقتناء الفضائل ، خاصة فضيلة التمييز والاتضاع والصبر الذى يجعل الخطايا تهرب ويجعل العفة تزهر وتينع ، وهذا العمل يكلل الإنسان بالتأمل فى الإلهيات والسلام الباطنى والسكينة ، وتتسم هذه الحياة فوق كل شئ بالصلاة بشهوة روحية وفرح لا يُنطق به .

وفى الصلاة الدائمة تثمر النفس وتظل بالقرب من الله ، وهذا الفرح الروحانى يصحبه تنقية للنفس وتجارب من كل نوع تحرر النفس من كل الرباطات والأرتباطات حتى تسلم النفس فى فقر تام إلى ارادة الله ، وهنا ، يكون العرس الروحى الذى يسميه الآباء «اتحاد» .



٢) من الكتاب المقدس إلى الصلاة النارية

إن جوهر وقلب كتاب «المناظرات» وجوهر روحانية كاسيان يستعلن لنا فى المناظرتين رقمى ٩، ١٠ عن الصلاة وفى المناظرة التالية لهما رقم ١١ عن الكمال .

فالصلاة الدائمة هى غاية الراهب ، إذ لهذه الغاية خرج ، وهذا هو الهدف من قلايته ، أي التوجيه الدائم للفكر نحو الله ، دون أن تتشتت الأفكار أو تتسلط الأهواء ، ومن هنا كان السعى وراء نقاوة القلب ضرورة ملحة للصلاة الكاملة ، وأصعب عقبة تعيق الصلاة هى الخطية ، والعقبة التالية هى القلق أو الاهتمام بظروف الحياة المادية (مال ، طعام الخ) ، والعقبة التالية هى الكبرياء فالاتضاع هو انفتاح القلب ، يأتى بعد ذلك فى سلسلة العقبات ما نحمله فى أذهاننا وقت الصلاة ، فالدماغ لا يمكنه أن يكف عن التفكير فيما حدث للتو أو بالأمس ، فوقت الصلاة يأتى الضحك على فكاهة سمعها المصلى من ساعة انقضت ، لذلك الوقت الذى يسبق الصلاة يجب أن يكون هو ايضاً وقت صلاة ، والذى لا يكون طوال يومه مصلياً ستكون صلاته

ضعيفة عندما يركع على ركبتيه ، ولا يستطيع أحد أن يصلى فى حياته اليومية إلا إذا كان يجاهد ليبلغ نقاوة القلب .

وكل فرد يصلى بطريقة مختلفة ، وكل إنسان ربما يصلى بطرق مختلفة فى الأوقات المختلفة ، وليس هناك من يصلى وقت التجربة كما يصلى فى أوقات التعزية ، فكل نوع من الظروف يمكن أن يؤثر فى طبيعة أو شكل الصلاة ، ولكن الأمر الأكيد هو انه مهما اختلفت أشكال الصلاة وحالات المصلى ، إلا أنها ستتضمن التصميم والتوبة والتضرع من أجل الآخرين ، لأنك لا تستطيع أن تصلى دون أن تذكر احتياجات الناس ، وكذلك سوف تتضمن الشكر .

الصلاة هى أن نكون فى حضرة الله ، وهذا يعنى أن يكون الإنسان صاح وواع بصلاح الله ومحبته للبشرية .

بيد يحدث احياناً أن تجتمع هذه العناصر جميعها ، وفى ذلك الوقت تكون النفس كشعلة من النار ، وهذه الحالة البالغة العلو من الصلاة هى لقاء النفس المحب والمباشر مع الله ، وهذا يصفه

كاسيان بطرق عدة فهو رؤية وهو تأمل ، فيه شعور بأن الله حاكم ، وفيه ثقة بعناية الله ، فيه رجاء قوى فى غفران الله ، فهى صلاة واعية بعجز الكلمات ، لكن يمكن أن يُعبر عنها بصرخة من القلب أو يُعبر عنها بالدموع .

وهذه لحظات تأتى للنفس وليست حالة دائمة ، ويمكن أن تنبع فجأة من آية من مزمور أثناء ترنيم المزامير ، واحياناً من كلمات عطرة يقولها رجل قديس ، واحياناً من تذكار الموت .

والنفس المصلية تحتاج إلى الطعام والغذاء ، وأفضل طعام لها هو القراءة فى الكتاب المقدس والتأمل فيه «النفس التى تقدمت نحو الله لا تتوقف ابداً عن أن تتغذى بهذا الطعام» .

وكتاب المزامير هو الكتاب المميز فى الصلاة إذ كُتب أساساً ككتاب صلوات مملوء بالتوبة والتضرع «عندما ترتل النفوس المزامير ، يرتلونها ليس كأنها بعض من أشعار النبى ، بل على اعتبار أنهم كتبوها لأنفسهم» .

وصلاة المزامير هى صلاة المسيحى الخاصة ، والكلمات التى

فيها تنطبق على النفس ، ويشعر ذهن الإنسان المصلى بها أن الفكرة تنبع منه هو وأنها جديدة وأصيلة وليست مأخوذة من فكر أحد ، ويكون المعنى واضح بدون تحليل لغوى أو نحوى ، لأن الكتاب المقدس بالنسبة لهذه النفس هو نبع يجدد القلب ويحضر الذهن والدماغ أمام خالقه .

واكتشف كاسيان انه بالترديد الدائم لآيه تضرعية ، تظل هذه الآية دوماً جديدة فى قوتها ، وفى تاريخ الروحانية يُذكر أن الآباء الأقباط هم أول من استعملوا هذا التدريب ، وأن كاسيان هو أول من نشره ، واختار كاسيان آية من المزامير «اللهم التفت إلى معونتى ، يارب اسرع واعني»

فكاسيان يعطى أهمية أولى وعظيمة للكتاب المقدس وللصلاة فى تعليمه الرهبانى ، فاحداهما تقود إلى الآخرى بعمل الروح القدس ، فالكتاب المقدس هو كتاب الراهب ، والاستشهادات الكتابية الكثيرة فى كتابيه «المؤسسات» و«المناظرات» من الأسفار المقدسة هى دليل على عظم المكانة التى يشغلها الكتاب المقدس فى الحياة الرهبانية .

وإذا كان من الممكن عيش ملكوت الله فى هذا العالم ، فإن القراءة الدائمة والتأمل فى الكتاب المقدس تمثل وسيلة أكيدة لبلوغ هذا الهدف ، لذلك يجب على الراهب أن يحفظ بعض أجزاء من الكتاب المقدس ، كى يستطيع أن يفهمه جيداً ويتأمل فيه ، إلى أن يصل إلى المعنى الروحى ، فى نقاوة القلب ، وهذا ينطبق خاصة على المزامير .

والتأمل فى الأسفار يتيح للراهب أن يكتشف وراء النص حضور ذاك الذى يوحى بها ، فتقوده إلى حوار وإلى الصلاة حتى تظل النفس صامتة مستمعة فقط لله الذى يتكلم ، وهكذا تحقق الصلاة الدائمة النموذج الرهبانى .

كما أكد كاسيان على ضرورة حفظ أجزاء من الكتاب المقدس ، وعندئذ سوف تتداعى الآيات فى الذهن مرة ومرات ، وسوف تأتى إلى الفكر فى الأوقات التى لا يستطيع الإنسان أن يفكر فيها لانشغاله بأعمال اخرى أو فى أوقات التجارب .

وكما كان عند كاسيان شعور قوى بأن الحياة الروحية هى عمق

لا يُحد تغوص فيه النفس قليلاً قليلاً ، كذلك كان احساسه الروحى تجاه الكتاب المقدس ككتاب ذى معان واضحة ، لكن خلف المعنى الحرفى هناك سلسلة من الحقائق العميقة ، والتى تفهمها النفس أكثر كلما تقدمت فى القامة الروحية «بينما نجاهد بترديد دائم لنحفظ هذه القراءات ، ليس لدينا وقت لنفهمها ، لأن عقولنا مشغولة ، لكن فيما بعد ، عندما تتحرر من التشتيتات الناتجة عن كل ما نفعله ونراه ، وخاصة عندما نتأمل بوضوح فى ساعات الليل ، نفكر فيها ونفهمها بوضوح أكثر» .

وضمن الصلاة الدائمة تأتى الصلاة القانونية (الأجبية) والكتاب المقدس يقول «سبع مرات فى اليوم» لذلك كانت الأديرة تصلى سبع صلوات فى اليوم وحتى المتوحدون كانوا يصلونها فى أوقاتها القانونية ، وهذا هو التقليد الذى تسير عليه كنيستنا المقدسة حتى الآن .

وليس هناك أى تعارض بين حياة العمل وحياة التأمل ، فالنفس المصلية تصلى بسهولة أثناء العمل ، والعمل مفيد ونافع تماماً للروح المصلية ، لكن يجب أن تكون ساعات العمل كافية

وليست زائدة .

والبطالة وعدم العمل هى السبب فى الضجر ، فربما يظن المرء انه لن يفعل شيئاً إلا أن يصلى لكن حقيقة الأمر أنه لا يفعل أى شئ ، وبعد فترة يصيبه ضجر شديد ، ولم يكن كاسيان معجباً بهؤلاء الذين يقولون أنهم روحيون جداً عن أن يعملوا ، فالعمل الأمين هو جزء من انكار الذات الذى يجب أن يحياه المسيحى ، وكان كاسيان يحب أن يردد المثل القبطى الذى كان شائعاً فى الأوساط الرهبانية فى ذلك الوقت «الراهب الذى يعمل يحاربه شيطان واحد ، والراهب البطال يحاربه جيش من الشياطين» ، فحتى لو لم يكن هناك احتياج إلى العمل المضنى ، لأن الطعام متوفر ، إلا أن الراهب لابد أن يستمر فى العمل ، لأن العمل جزء من الحياة المسيحية .



المصادر والمراجع

1) C.Luibheid,John Cassian.

2) Owen Chadwick, John Cassian, 2nd. ed., Cambridge, 1968 .

3) Quasten, Patrology, vol.iv, p.512-522 .

4) Scaff & Wace, A Select Library of Nicene and Post Nicene Fathers of The Christian Church, II, 2 ser. 2.

5) The Oxford Dictionary of The Christian Church.

٦) الأب الموقر القمص تادرس يعقوب : مناظرات يوحنا كاسيان ـ مارجرجس اسبورتنج ـ عام ١٩٨١م .



الفهرس

